المناهج التربويّة اللبنانيّة الجديدة:
أين ينتهي التقليد وأين تبدأ الحداثة؟

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ(٥)

إنطلقت ورشة إصلاح المناهج التربويّة اللبنانيّة، بعد ربع قرن من الجمود، عندما تمّت الموافقة، عامّ ١٩٩٥، على هيكليّة التعليم الجديدة التي أعدّها المركز التربوي للبحوث والإنماء، بموجب قرار مجلس الوزراء رقم ٢٢ تاريخ ١٩٩٥/١٠/٢٥. ولا شكّ أنّ الكتاب الذي أصدره المركز التربوي آنذاك يُعتبَر المنطلق والمرتكز والخطّة الأساسيّة التي استندت إليها البرامج والكتب والوسائل التعليميّة الجديدة المختلفة.

ما هو الجديد في المناهج المعتمدة، وهل الجديد مرادف للحداثة في التربية والتعليم؟ ذلك هو السؤال الذي نطرحه في هذا الحيّز المحدود.

يصعب حصر الجديد في المناهج المستحدثة، إلاّ أنّنا سنعرض له بصورة سريعة:

- الهيكليّة أصابها بعض التعديل، إذ أصبحت سنوات المرحلة الابتدائيّة ستًّا بدل خمس، وذلك بهدف دفع العدد الأكبر من التلامذة إلى المزيد من التعليم الإلزاميّ، ولكنّ الإلزاميّة لم تزّ النور بوجه جدّيّ، إذ إنّها ترتبط بالمجّانيّة، وهذا ما ليس متوافرًا اليوم. وتغيّرت الأسماء، فأصبح التعليم حتّى عتبة المرحلة الثانويّة يسمّى «أساسيًّا». وأُدخل في كلّ المراحل موادّ التكنولوجيا والمعلوماتيّة والفنون، كما أُدخلت في المرحلة الثانويّة الحضارات والاجتماع والاقتصاد. وهذه الموادّ في غالبيّتها ليست جديدة في لبنان، إذ إنّ الكثير من المعاهد التي تعتمد المناهج الأجنبيّة، كالفرنسيّة أو الإنكليزيّة، تدرّسها بوجه أو بآخر.

- وإلى جانب التغيير في الهيكليّة وربطه بالتعليم المهنيّ والتقنيّ فيما يختصّ بالذين يودّون ترك التعليم العامّ، فإنّ الأساليب العلميّة والطرائق

(٥) رئيس تحرير المشرق. رئيس ثانوية «سيّدة الجمهور».

التدريسيّة مدعوّة إلى التغيّر، إذ إنّ الأسلوب الجديد يدعو التلميذ إلى المشاركة في العمليّة التربويّة عبر الاستقراء والملاحظة والتعبير والتحليل... كما أنّ طرائق جديدة، ذات صفة اختباريّة، أخذت تقوم بدورها في التعليم بدل التلقين والإملاء والحفظ غيبًا وتغليب الكمّ على النوع. ولا شكّ أنّ هذا كلّه هو من الجديد، بالرغم من أنّ شريحة كبيرة من القطاع الخاصّ أدخلت جميع هذه الأساليب إلى التعليم منذ زمن بعيد.

- والجديد أصاب أيضًا مجمل مناهج المواد الأساسيّة في اللغات والآداب والعلوم بتنوّعها، وذلك من حقّ التلميذ اللبنانيّ بعد أن تجاوزت البرامج الأجنبيّة البرنامج اللبنانيّ بأشواط بعيدة. والقطاع الخاصّ المدرسيّ كان يطالب منذ أن وضعت الحرب أوزارها، أن يتمّ إصلاح هذه البرامج سريعًا ليُصار إلى ردم الهوّة بين البرنامج اللبنانيّ وسواه من البرامج، وخصوصًا أنّ المناهج اللبنانيّة كان يسيطر عليها الطابع النظريّ الذي يغلّب الجانبَ المعرفيّ على الجانب العمليّ الاختباريّ، وهذا ما كان يوجّه التلميذ نحو الحفظ والاستظهار عوض التحليل والتركيب.

إلاّ أنّ هذا الجديد كلّه، وهو نسبيّ بالنظر إلى كلّ ما يُعمَل به في بعض مدارس لبنان، يصبّ في خانة الحداثة إذ إنّه يغلّب في الإجمال، على صعيد التطبيق والواقع، وعلى صعيد الأهداف، النواحي التالية:

[أوّلاً:] لا خطّة تربويّة ولا عمليّة تعليميّة من دون مشروع متكامل وشموليّ، وهذا ما لحظته البيكليّة الجديدة، مع العلم أنّ مفهوم «المشروع» في فلسفة التربية هو مرتبط بالحداثة، إذ إنّه جواب عقلانيّ إنسانيّ متكامل عن مجمل أسئلة يطرحها الواقع. إنّه عبارة عن خيارات منطقيّة للتغلّب على كلّ صعوبة تمنع الإنسان الاجتماعيّ الاقتصاديّ الدينيّ من أن يحقّق ذاتيّته وإمكانيّاته. فالهيكليّة الجديدة أسّست البرامج المستحدثة عبر تحديد مفهومها ومضمونها، وعبر صياغة مبرّراتها المنطقيّة، ووضع غاياتها وأهدافها. ولكي يتكامل المشروع التربويّ، حدّدت الخطّة الجديدة مراحل التعليم وأهدافها ومواصفاتها، ثمّ رسمت وضعيّة تطوّر التربية من نظاميّة وغير نظاميّة، وأعلنت عن قيام إطار تقييم جديد، لا يسعى فقط إلى إعلان

مصير التلميذ عبر علامة حامدة، بل يرتكز أيضًا على ما يسمّى التقييم التكويني، الذي يساعد التلميذ على رؤية وضعه المدرسي رؤية صحيحة بما فيها من إيجابيّات وسلبيّات. فالحداثة تكمن هنا في أنّ التربية لم تعد مجمل عناصر منفصلة بعضها عن بعض (كالطرائق والمهارات وبرامج المواد...) بل إنّها توحّد تلك العناصر عبر مشروع له أهدافه.

[ثانيًا:] وظيفة أهداف التربية، وهي ضرورة اجتماعيّة وعمل جماعيّ شامل، كما تقول الهيكليّة، تقضي ببناء شخصيّة الفرد، على أن تراعى في تكوينها القدرة على تحقيق الذات وتحمّل المسؤوليّة والالتزام الأخلاقيّ... وكذلك تقضي ببناء المواطن اللبنانيّ. ولا نعلم إذا كان واضع هذه العبارات قد قصد استخدامها بصورة حادقة، إذ إنّ «الفرد» و«المواطن» وإن كانا من المفاهيم الشائعة في زمننا، فإنّهما مرتبطان بفلسفة إنسانيّة هي اليوم في أساس الدولة والوطن. فالفرد البشريّ يتحقّق عبر ثلاثة ميادين: الذهنيّ المعرفيّ، العاطفيّ الوجدانيّ، والسلوكيّ، وهذا كلّه من عمل التربية المدرسيّة، بدون أن تنسى دور الأسرة والمجتمع. وكلّ ميدان مرتبط بالآخر وهذا ما يسمّى التربية الشموليّة، أي تلك التي تهتمّ بتنمية قدرات الفرد وطاقاته، أكانت عقليّة ذهنيّة أم عاطفيّة أم سلوكيّة. وتهدف المناهج الجديدة، عبر تركيبتها، إلى بناء المواطن وبالتالي المجتمع اللبنانيّ القادر على ممارسة دوره الحضاريّ عربيًّا وعالميًّا.

[ثالثًا:] إذا كانت المناهج تهدف إلى بناء الفرد وتكوين المواطن، فلا بدّ لها من أن تأخذ بعين الاعتبار الواقع الذي يعيش فيه التلميذ، وهنا تتبيّن صعوبة مهمّة البرامج الجديدة في تحقيق الأهداف التي وضعتها. فالهدف الأوّل، وهو بناء الفرد، هو بُعد أساسيّ من أبعاد الحداثة، إذ إنّه يركّز على بناء الشخص الحرّ والواعي، المسؤول عن نفسه وعن الآخرين، في حين أنّ الهدف الثاني، أي تكوين المواطن اللبنانيّ، هو مرتبط بالواقع اللبنانيّ إذ يترتّب على التلميذ أن يكون خاضعًا للعناصر الروحيّة واللغويّة التي تؤلّف ذلك الواقع وأن يكون منفتحًا على الحداثة، عاملًا على تنمية رصيده الثقافيّ والعلميّ وصقل طاقاته الإبداعيّة وتعزيز حسّه الجماليّ

وهذا كلّه، على حدّ قول نصّ الهيكليّة، يضع التلميذ على مستوى الخاصّ والعامّ في الوقت عينه. ويمكن القول فرضًا إنّ الذي وضع هذه النصوص فكّر في أنّ الهدف الأوّل، حينما يتحقّق، هو مدعوّ إلى أن يكون خاضعًا حكمًا للهدف الثاني، إذ إنّ الحداثة التي يكتسبها التلميذ عبر تربية شموليّة لإمكانيّاته وسلوكه، تهدف إلى جعل المواطن يتأصّل في واقعه السياسيّ والدينيّ من ناحية، وأن يستطيع، عبر قدرته العقليّة ومواقفه العاطفيّة، أن يجمع في شخصه بين التقليديّ والحديث، وأن يوفّق بين النقيضين لتكوين شخصيّة تجمع بين الإيمانيّ والعقلانيّ.

دور المعلّم: ويبقى أن نقول إنّ هذه الأفكار التي تنحو منحى الحداثة في التربية، مضمونًا وأسلوبًا، لا تستطيع بلوغ الهدف وحدها، بل هي بحاجة إلى مرشد هو المعلّم، قبل الكتاب والوسائل التربويّة. لذلك قام المركز التربويّ بإعداد قسم كبير من المعلّمين للصفوف التي بدأت تطبّق فيها المناهج الجديدة، ولكنّ المُعِدّين والخبراء يرون أنّ الإعداد السريع والنقص في التجهيزات والمختبرات، وهي شرط من شروط تحقيق المنهجيّة الجديدة، ليسا في صالح نجاح حقيقيّ للنهضة التربويّة، خصوصًا في مجال المدرسة الرسميّة وبعض المدارس الخاصّة. فالمتمرّسون بالقديم يصعب عليهم التغيير، والخروج من التلقين ومحوريّة المعلّم المركزيّة إلى التعليم التكوينيّ عسير.

الخلاصة: لقد وُضع على مستوى لبنان كلّه مشروعُ تربيةٍ حديثة طموح، فهل يستطيع لبنان كلّه أن يواجه التحدّي وأن يحقّق ذلك المشروع؟ وفي حال حقّقه، وهذا مستبعد، فإنّ الانفتاح على الحداثة لا بدّ له من أن يترك الأثر السلبيّ على تكوين الشخصيّة ما لم تستطع هذه الشخصيّة أن تجمع بين الحداثة والمظاهر الأساسيّة في التقليد، وهي النقل، والقِيَم الأخلاقيّة الثابتة، والشريعة التي تنظّم الحياة، وجميعها منوط بالعائلة والمجتمع اللذين يكوّنان الوعي الاجتماعيّ، لا بل اللاوعي، خصوصًا أنّ جزءًا كبيرًا من العمليّة التربويّة يبقى في يد التعليم الحرّ، أي في يد المؤسّسات التي تمثّل الجماعات التاريخيّة التي كوّنت الحالة اللبنانيّة.